



✽ عرض وتقديم : محمد سليمان حسن

تقديم أولي..

هي مقارنة انطولوجية عندما نضع «سبينوزا» مقابل «الخوارج» ففي الوقت الذي أعلن فيه «الخوارج» مفهوم «التحكيم» أعلن «اسبينوزا» مفهوم «العقل». وفي الوقت الذي رُفِضَ فيه الخوارج من الأطراف ككل، أُخرج «اسبينوزا» من حظيرة اليهود ولم ينل مباركة المسيحية الكنسية. هو شخصية معرفية على غاية من الأهمية بسبب من حيازته التكوين المعرفي

✽ باحث سوري.



نفسها عام /١٦٧٧م/. ولد في أسرة يهودية هاجرت من إسبانيا إلى هولندا، تلقى تربية جيدة، ودرس «التلمود» في الكنيس اليهودي. كذلك درس بعض مؤلفات الفيلسوف العبري «موسى بن ميمون»، وبعض علماء اللاهوت اليهودي في العصور الوسطى. كذلك اطلع على «القبالة» وهي كتب صوفية وسحرية يهودية. وتعلم اللغة اللاتينية، وكان طبيباً متضلعا في العلوم الطبيعية. لكن معرفته باليونانية كانت ضعيفة. وكان يتقن الإسبانية والبرتغالية والعبرية، ويلم بالفرنسية والإيطالية.

في الثالثة والعشرين من عمره بدأ مظاهر التمرد ضد «اليهودية»، وحاولوا استمالته بالمال، وهددوه دون جدوى. فاتهمته الكنيسة اليهودية بالإلحاد. وأصدرت العام /١٦٥٦م/ قراراً بطرده من حظيرة الكنيسة اليهودية.

في سنة /١٦٦١/ شرع في تأليف رسالة «في إصلاح العقل» دون أن يتمها. ومن أحاديثه مع أصحابه ألف «رسالة صغيرة عن الله والإنسان وسلامة روحه». وطبعت في العام /١٨٦٢م/. وفي العام /١٦٦٣م/ بدأ في كتابة مؤلفه الرئيسي «الأخلاق». وفي العام

الشرقي والغربي معاً. لقد اطلع «اسبينوزا» على الفلسفة اليونانية، وكان في الوقت نفسه وريث ثلة من الفلاسفة الأوروبيين: ديكارت- هيوم-، لوك،.. وفي الوقت نفسه بسبب من انتمائه العائلي للطائفة الموسوية كان على اطلاع دقيق على يهودية الشرق ومن ثم على مسيحية الشرق أيضاً.

أمام كل ذلك وعلى خلاف المعهود، خرج إلينا «اسبينوزا»، بنظريته الراضة «للاهوت» والمتبعة نور «العقل» ولكن ليس من منطلق العدا السلبى للاهوت. ولكن من منطلق رؤية اللاهوت بمنطق العقل.

الكتاب مثار التقدير، يدور حول هذه المحاور، ويقع تحت عنوان «اسبينوزا واللاهوت». والمؤلف هو الدكتور «منذر شباني». وقد صدر الكتاب عن الهيئة العامة السورية للكتاب. بواقع /١٩٨/ صفحة من القطع الكبير. ومن إصدارات العام /٢٠١٠م/.

من هو اسبينوزا؟

فيلسوف هولندي الموطن. ولد في «أمستردام» عام /١٦٣٢م/. وتوفي في المدينة



الذائدين عن الإلحاد، فإن «اسبينوزا» كان أكثرهم تشاؤماً.

هذا الموصوم بالإلحاد فاجأ الجميع في كتابه «الأخلاق» بأنه عالم وفيلسوف بالكليات، بل بميتافيزيقا الكليات عندما يقول «إن الله هو الكل والكل هو الله». اعتقد أنها عقلانية تكاملية توتّي ثمارها من خلال فهم اللاهوت فهماً عقلانياً. فالكليات هذه هي وصمة «أرسطية» بامتياز.

إن التعامل بالكليات عند «اسبينوزا» هو ما دفع «لبينتز» إلى القول: إن اسبينوزا ينتقل من الأعلى (الله) إلى الأسفل (المخلوقات) أي

١٦٦٣م/ نشر كتابه «مبادئ فلسفة ديكارت» وكتابه «أفكار ميتافيزيقية». وبدأت شهرته بالصعود. في العام /١٦٧٠م/ نشر كتابه «رسالة لاهوتية فلسفية». وفي سنة /١٦٧٦م/ زاره الفيلسوف «لبينتز»، ثم أقعده المرض حتى توفي في /٢١/ فبراير /١٦٧٧م/.



عصر النهضة والإرهاصات الأولى

لنقد اللاهوت

لقد كان لشخصية «اسبينوزا» الدور المهم في وصمه بالإلحاد، بسبب موقفه من اللاهوت، بحسب المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك حول مفهوم «الإلحاد».

ففي كتاب «طائفة الدجالين» لمؤلفه «كريستيان كورتلي» في القرن السابع عشر يبرز «اسبينوزا» بوصفه الشخصية المخربة واللعينة. إنه ذلك اليهودي الذي طرده اليهود، ويمضي حياته في عزلة وانفراد. كما أنه في صميم تفكيره كان ضبابياً. وإذا كان الإلحاد قد تولّد من النهضة الإيطالية، واستشرى بوساطة «ميكافيلي» و«ارتيان» و«فانيتي»، وإذا كان «هربرت شبري» و«هوبز» أعظم

ضمن قطعية معرفية تزداد تعقداً مع ازدياد اضطراب المشكلات الفكرية المعاصرة ثقافياً وسوسيولوجياً على نحو خاص.

من الإرهاصات الأولى لعصر النهضة الأوروبي، وجود الاكتشافات الجغرافية التي عنت فيما عنت منه اكتشاف الآخر. فازدياد المساحة الجغرافية والسياحة في المكان أدى إلى الالتقاء بالآخر والاطلاع على ثقافات الآخر وبالتالي ديانات الآخر مما أسهم على نحو حاد في استكشاف آفاق جديدة ذات طابع كوني. من العوامل الأخرى ما جرى من تغيرات اجتماعية واقتصادية في أوروبا ومن ضمنها هولندا. فقد أخذت البرجوازية زمام الأمور من الطبقة الإقطاعية القروسطية، وشكلت أدوات إنتاج جديدة وبنى اجتماعية مدنية مما انعكس على الفكر بعامته واللاهوت والكنيسة خاصة. فظهر المذهب (الإنساني) الذي أكد على قيمة (الإنسان) مقابل (الإله). وقدرة الإنسان على التغيير.

وكان للكنيسة الدور الأكبر في عملية التغيير. فقد دفع الإصلاح الديني وفلسفة عصر النهضة في التأسيس لنقد اللاهوت.

في جانب الجدل النازل عند (أفلاطون) في أوليته على الجدل الصاعد. أي من الكل إلى الجزء أولاً. وهو ما سيدفع باحثة راهبة لاحقاً إلى القول في كتاب لها عن «الحب الإلهي عند فلسفة اسبينوزا» بأن فلسفة تطوي على نوع من الانطوائية الروحانية. ولعل الصواب في رأينا «الجوانية الروحانية».

من أجل ذلك طالب «اسبينوزا» في مقدمة كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة» من لا يحكمون العقل ويتركون قيادهم للانفعالات، بأن يتجاهلوا كتابه المذكور.

هذه الإشكالية لدى هذا الفيلسوف بين الإيمان والإلحاد يمكن حصرها في اتجاهات ثلاثة هي:

١- الاتجاه الأول: ما يمكن اعتباره منحى معرفياً ابستمولوجياً.

٢- الاتجاه الثاني: فهو ما يمكن رؤيته في إمكانية أن يكون هذا العمل متابعة لأعمال تمت على يد باحثين عرب.

٣- الاتجاه الثالث: يتمثل في راهنية المسألة اللاهوتية وطغيانها عموماً وخصوصاً، وفيما نجم عنها من رفض لتجارب الآخر، والعيش

من مشاكل عدة: فهي منسوبة إلى مؤلفين لم يكتبوها. فلا موسى هو كاتب الأسفار الخمسة الأولى، ولا يشوع كاتب أسفاره، وكذا غيرهم من الأنبياء التوراتيين. كما أن روايات التوراة تعاني من اضطراب الزمن، باستخدام الضمائر. إذ كيف لموسى أن يكتب عن نفسه بصيغة الماضي، وأن يتحدث عن نفسه بعد موته. وقد استتبسط اسبينوزا من ذلك أن المؤلف الحقيقي هو المؤرخ، الذي رصد الأحداث وضمنها في الكتاب المقدس.

أما النقد (الفيلولوجي = فقه اللغة). فقد تكشف عن أن الكتاب المقدس كتب بلغة نمت عبر التاريخ وتطورت، حيث ضاعت القواعد اللغوية والنحوية والصرفية، إضافة إلى وجود ألفاظ لم تعد متداولة، وكذلك الحال بالنسبة لأسماء المدن والأماكن والأشياء. مما يعني أن الكتاب دون على فترات، لكل فترة قواعديتها ونحوها، كما دون الأسماء في زمن التدوين وليس في زمن الحدث.

النقد الثالث هو (البنوي) أظهر أمراً على جانب كبير من الخطورة، كمن في أن النص التوراتي مخترق من قبل المؤلف واللغة

فقد أدى تبسيط العقيدة المسيحية، إلى نشوء الكنيسة الشعبية، ونشأت الكنيسة الوطنية ونما معها شعور وطني.

لكن فلسفة الإصلاح الكنسي كان لابد من أن تمر بفلسفة عصر النهضة. فقد تبين أنه لابد من التفكير فلسفياً في قضايا من مثل (الله والعالم والإنسان). فقد قام (برونو) بسبب من أصالته الفلسفية إلى التوصل لما يسمى (واحدية الجوهر) حيث يكون (الله = الجوهر). مما أدى باسبينوزا لاحقاً إلى إنكار (الوحي التوراتي) وتفريغه من مضمونه، واعتبار الفلسفة هي الحقيقة.

اسبينوزا والنقد المنهجي للنص

اللاهوتي..

استخدم اسبينوزا لنقد النص اللاهوتي ثلاثة أنواع من النقد: التاريخي والفيلولوجي والبنوي.

وعلى صعيد المنهج، فقد اعتمد على الاستقراء وجمع المعطيات، والانتقال منها إلى النتائج، بوساطة الاستنباط.

ففي المنهج التاريخي توصل اسبينوزا إلى من النصوص المكونة للكتاب المقدس تعاني

ومن ثم السلطة السياسية اللاهوتية. فضاء النسب التاريخي للنص، إضافة إلى الانتقائية في النصوص بما يخدم ويفيد واضعيها.

النقد الأيديولوجي للنص اللاهوتي.

النقد الأيديولوجي يعني الطريقة التي تستثمر فيها السلطة اللاهوتية النص المقدس من أجل تطبيع الجماعة الدينية، من خلال خطة عمل تتركز على الطقوس والعبادات والشعائر، إضافة إلى مناخ (قداسوي) يربط الفعل بالتقوى في الحياة اليومية. ذلك يعني تشكيل مجموعات بشرية موالية للسلطة تعادي من يعادي السلطة مع توازن في أن تؤمن السلطة بما يؤمن به الأتباع.

النقد الأخلاقي باعتباره محمول معرفي لحامله، وتشكيل أيديولوجي بوصفه منظومة اجتماعية، يكشف عن تنوع المنظومة الأخلاقية في العالم، من وجهة نظر اللاهوت والميتافيزيقا. لقد ألقى سبينوزا الثنائيات المفترضة بين النفس والجسد، واعتبر الإنسان وحدة متكاملة. كما يرى سبينوزا أن الأخلاق تتأسس على (المعرفة العقلية) التي تؤدي إلى أخلاق حقيقية غايتها تحقيق الفضيلة

اسبينوزا واللاهوت

الأساسية للإنسان، وهي حفظه لكيانه وعيشه بسعادة مع الآخرين، وإدراكه أن سعادته لا تتحقق إلا معهم، وأن «الإنسان إله الإنسان، حيث يكون جذر ذاته».

النقد السياسي يكمن في دور الدولة الوظيفي، باعتبارها المنظم للحق الطبيعي. فالأخلاق تكمن في التأكيد على الأخلاق الجمعية لا الفردية، وباعتبار أن الحق الأخلاقي الفردي هو جزء من المنظومة الجمعية. أما شكل الدولة التي ينادي بها اسبينوزا فهو الديمقراطية. فهي دولة تتأتى بقرار- بشري لاقرار من السماء. كما يؤكد اسبينوزا على جدل العلاقة بين اللاهوت والدولة. فالدولة تفسر اللاهوت بما يوافق مصلحة الأفراد.

النقد الفلسفي للاهوت الديني.

يقدم اللاهوت نفسه على أن النص الديني يحوز على حقائق ومعارف قاطعة، وهذا يعود بالنسبة لاسبينوزا إلى النظر للنص الديني على أنه نص خفي مليء بالأسرار التي لا يمكن فهمها، في حين أن الكتاب يخلو من ذلك، لأنه لو كان كذلك لكان كتاب للخاصة لا للعامة.

الله عن العالم. فالله هو الطبيعة، والطبيعة هي الله. وبالتالي فإن ما يحدث يعود إلى قانون أزلي، لا إلى رغبات أو إرادات إلهية. في الجزء الأخير يناقش اسبينوزا العلاقة بين العقل والنقل من خلال تيارين أساسيين في اليهودية وهما: التيار العقلاني المتمثل (بابن ميمون) الذي أخضع الكتاب للعقل. والتيار النصي الحريفي الذي مثله (الفخار) الطبيب الأندلسي ونادي بإخضاع العقل للنص التوراتي.

ويؤكد اسبينوزا، أن المعرفة المحيطة بالنبوة والأنبياء التوراتيين هي معرفة فطرية، وأن الأنبياء التوراتيين هم ذو وحي خيالي لاعقلي، ولذلك جاء الوحي النبوي متطابق مع شخصية النبي وحالته العقلية والنفسية. وكذلك مهنته ومكان إقامته، فالنبوة ذات يقين أخلاقي لا عقلي رياضي. في الجانب المعرفي الثاني يتطرق اسبينوزا إلى جدل العلاقة بين الله والعالم. من هنا يرى فيلسوفنا أن العالم وحدة كلية، جوهر واحد وبالتالي يقطع الطريق على إمكانية انفصال

